دور المستشرقين في محاولة إقصاء العربية الفصحى وإحلال العامية محلها في الكتابة الأدبية

د.صالح مرحباوي
جامعة باتنة 1

ملخص :
يتطرق هذا المقال الى الكشف عن الدور الذي قام به المستشرقون في محاربة اللغة العربية الفصحى والسعي إلى إقصائها من الحياة الثقافية والفكرية والعلمية والأدبية، وذلك من خلال دعوتهم الشهيرة إلى إحياء العامية وضبطها لتحل مجل الفصحى في هذه المجالات وتحديدا في المجال الأدبي، وكانت حجتهم في ذلك أن العربية الفصحى هي لغة صعبة وجامدة وغير صالحة لمواكبة العصر ومسايرة حركة التقدم المنشودة في العالم العربي، وقد تركت هذه الدعوة صدى كبيرا في أوساط المثقفين والأدباء العرب في ذلك الحين؛ فظهر لها أنصار ودعاة، كما شاعت اللهجات العامية في كثير من الأعمال الأدبية، إلا أنها في المحصلة لم تحقق أهدافها الخطيرة بالشكل الذي أريد لها خاصة إذا علمنا أنها دعوة تستهدف تاريخ الأمة العربية وتراثها وقيمها الروحية والدينية وتخدم أهداف الاستعمار الغربي في الهيمنة والنفوذ.

Abstract

This article explores the role played by the Orientalists in excluding Standard Arabic from cultural, intellectual, scientific and literary life. The Orientalists appealed to using dialects instead of the standard language especially in the literary field. They went as far to argue that Standard Arabic is difficult, rigid and inappropriate to cope to development in the Arab world. This affected Arab intellectuals and literary figures. Thus, proponents to the appeal emerged and dialects appeared in many literary works. However, the appeal's dangerous goals were not achieved given that it targets the history of the Arab nation, its heritage and its spiritual and religious values, and serves the western colonization in dominance and extension.

يتضح من النظرة العابرة لتاريخ الاستشراق في البلاد العربية أن جملة من القضايا قد استحوذت على جل اهتمامه وحظيت بالجهد الأوفر من بحوث أعلامه ودراساتهم التي انصبت على الموروث العربي والإسلامي أولا ثم لتتناول الأدب العربي الحديث وقضاياه ثانيا. وتأتي قضية اللغة العربية في مقدمة هذه القضايا؛ إذ أثيرت حولها العديد من الإشكاليات وطرحت بشأنها كثير من المقترحات والآراء من قبيل صلاحية اللغة العربية الفصحى لأن تكون لغة للعلوم والفنون والآداب، ومدى ملاءمتها لروح العصر، وعلاقتها بمشكلات المجتمع وقدرتها على استيعاب طموحاته

في التطور والازدهار، والمقارنة بينها وبين اللغات الأخرى، وبين اللهجات العامية المحلية.

ولعل أخطر مسألة بشأن اللغة أثارها فئة من المستشرقين ودعوا إليها بكل ما أوتوا من قوة علمية ونفوذ أدبي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هي الدعوة إلى إحياء اللهجات العامية المحلية وضبطها بهدف إحلالها محل اللغة العربية الفصحى في كل المجالات : الاجتماعية والثقافية والإدارية والقانونية والأدبية، وبعبارة أخرى اعتمادها لغة رسمية للمجتمع واتخاذها لغة للكتابة بشكل عام والكتابة الأدبية بشكل خاص بدلا عن الفصحى، وقد كان لهذه الدعوة أو بالأحرى لهذا المشروع الفكري الاستشراقي تداعياته وآثاره في مختلف المستويات والأصعدة ومن أبرز هذه الآثار: نشوب صراع مرير بين الفصحى والعامية، ودخول العامية بقوة إلى المجال الأدبي؛ في الرواية والقصة والمسرحية والشعر أيضا، بالإضافة طبعا للآثار السياسية والاجتماعية والثقافية لأن هذه الدعوة – كما يرى كثير من الباحثين- تمس بوحدة الأمة العربية وتاريخها وتطعن في وجودها الحضاري في الصميم على اعتبار أن اللغة ليست مجرد أداة للتواصل بل هي عنوان الأمة ولسانها وخزان فكرها ورمز إنسانيتها، ويرى بعضهم أن سعي المستشرقين لإقصاء الفصحى لم يكن لأسباب علمية موضوعية – كما زعموا – وإنما كان لأغراض خطيرة ذلك أن هدفهم الحقيقي القضاء على العربية الفصحى وإحلال العامية محلها "...لأن روح العداء للعربية الفصحى والرغبة في إقصائها من الميدان الأدبي لم تنتشر إلا عن طريق الأجانب واستغلالهم لدراسة العامية في بث هذه الروح بين أبناء العربية"[1]

كانت اللغة العربية الفصحى منذ وجود الأمة العربية هي اللغة الرسمية، لغة الكتابة والإبداع والأدب والعلوم بلا منازع على الرغم من وجود اللهجات العامية بوصفها لغة الحديث والتعامل اليومي، ولم يكن يتصور في يوم من الأيام أن تصبح هذه اللهجات العامية منافسا للفصحى في ميادين الكتابة وخاصة الكتابة الأدبية التي هي الميدان المفضل للفصحى الذي تظهر فيه عبقرية العربية وخصائصها البلاغية، وكانت الفصحى والعامية تعيشان جنبا إلى جنب لكل مجالها ووظائفها وكانت العامية ينظر إليها على أنها انحراف عن الفصحى، وإذا اهتم بها أحد من العلماء أو الأدباء أو كتب عنها فمن أجل تصحيحها لا من أجل الترويج لها أو ضبطها واتخاذها لغة للكتابة في أي من المجالات.

هذا كان وضع العامية بشكل عام في العصور العربية القديمة بل إنها كانت دائما في خدمة الفصحى وليست ندا لها أو منافسا أو بديلا عنها " وعاشت العربية

الفصحى بجانب العامية في ذلك الوقت دون أن يحدث بينهما تنافس أو مزاحمة. إذ اختصت كل منهما بميدان. احتلت العامية ميدان التعامل في الحياة والتعبير عن الحاجات المادية والوقتية ولم تطمع قط في أن تكون لغة للأدب الرفيع إلا فيما يكون من أغاني العامة وقصصهم... واحتلت الفصحى ميدان الأدب لا يزاحمها فيه مزاحم إلا ما يكون من خطأ الكتاب والشعراء عن غير عمد منهم إلى إدخال العامية في كتاباتهم أو شعرهم، أو ما يكون من رغبتهم في التظرف، أو ما يكون بسبب ضعف في الثقافة العربية وخاصة في عصور انحطاط اللغة العربية..."[2] غير أن هذا الوضع قد تغير في العصور المتأخرة بشكل كبير، وخاصة مع دخول الأجانب وتحديدا المستشرقين دائرة الاهتمام باللغة العربية وآدابها، إذ أصبح للعامية شأن آخر غير ما كانت عليه بجانب الفصحى – كما أسلفنا- والخطوة الأساسية الأولى التي قام به هؤلاء المستشرقون هي تدريس اللهجات العربية في جامعاتهم وفي معاهد خاصة أنشئت لهذا الغرض، وقد استعانوا في أول أمرهم بالعرب الموجودين في أوروبا أمثال: محمد عياد الطنطاوي، وميخائيل الصباغ، وأحمد فارس الشدياق وغيرهم[3].

أما الخطوة الثانية وهي امتداد للأولى فهي إنجاز مؤلفات ودراسات تتناول العامية وتدرس خصائصها وقواعدها وأساليبها والهدف كان تسهيل العامية وتقريبها من أجل الاستخدام الكتابي. وهذه المؤلفات في البداية كانت بأقلام عربية لكن بإيعاز من المستشرقين على غرار: " أحسن النخب في معرفة لسان العرب" لمحمد عياد الطنطاوي، و" الرسالة التامة في كلام العامة والمناهج في الكلام الدارج" لمخائيل الصباغ[4].

وقد فسر كثير من الباحثين و الدارسين و أعلام الفكر العربي المعاصر دوافع هذه الدعوة الاستشراقية بمحاولة القضاء على اللغة العربية و القرآن الكريم والدين الإسلامي بشكل عام ليسهل السيطرة على العالم العربي بصورة نهائية ولا يتأتى ذلك إلا بالقضاء على الإسلام أو على الأقل إضعافه إلى حد كبير وهذا لا يكون إلا بالقضاء على الوعاء الذي يحمل هذا الدين وهو اللغة العربية الفصحى، يقول العقاد في بيان خطورة هذه الدعوة"...تعرضت هذه اللغة – وحدها - (يقصد العربية الفصحى) بين لغات العالم لكل ما ينصب عليها من معاول الهدم، ويحيط بها من دسائس الراصدين لها؛ لأنها قوام فكرة وثقافة وعلاقة تاريخية لا لأنها لغة كلام وكفى."[5] ولذلك رتب على العربي واجب الدفاع عن هذه اللغة في وجه هذه الهجمة ثم اعتبر أن ضياع الفصحى هو خسارة إنسانية وليست عربية فحسب" ومن واجب القارئ العربي إلى جانب غيرته على لغته أن يذكر أنه لا يطالب بحماية

لسانه ولا مزيد عن ذلك ولكنه مطالب بحماية العالم من خسارة تصيبه بما يصيب هذه الأداة العالمية من أدوات المنطق الإنساني، بعد أن بلغت مبلغها الرفيع من التطور والكمال، وإن بيت القصيد هنا أعظم من القصيد كله...لأن السهم في هذه الرمية يسدد إلى القلب، ولا يقف عند الفم واللسان، وما ينطق به في كلام منظوم أو منثور"[6]

كما اعتبر الرافعي أن هذه الدعوة هي مجاراة لإرادة المستعمرين في هدم ماضي الأمة وسلخها من تاريخها الذي يتجسد في اللغة " على أني لا أعرف من السبب في ضعف الأساليب الكتابية والنزول باللغة دون منزلتها إلا واحدا من ثلاثة مستعمرون يهدمون الأمة في لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها الذي هي أمة به ولن تكون أمة إلا به.."[7] . ويرى عثمان أمين أن الهدف من مثل هذه الدعوات يمس بوجود الأمة " أما الهوى فهو إشاعة التشكيك والاضطراب في مفاهيم الأمة ومقوماتها، حتى تضيع معالم تراثها الروحي ولا يبقى أمام أرباب الفكر فيها إلا صورة مهزولة وعقائد ممسوخة، وأما المقصد فهو التمكين للنفوذ الأجنبي من نواحيها متى نام وعيها وتفرقت كلمتها، فنسيت تاريخها، وظلت طريقها، وفقدت الثقة في تراثها، وأخذت بعض طوائفها أو أفرادها تردد صيحات مستوردة مسعورة... وقد تبين ذلك المقصد منذ أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن في حملات التغريب التي شنها النفوذ الغربي مصوبا هجماته إلى التراث العربي الإسلامي بوجه عام وإلى اللغة العربية بوجه خاص"[8]

ويمكن استعراض أهم المستشرقين الذين دعوا إلى إحلال اللهجات العامية المحلية محل اللغة العربية في مجال الكتابة الأدبية وكذا مؤلفاتهم الأساسية في هذا الجانب لتتضح العملية المنهجية التي اعتمدوها لتنفيذ مشروعهم اللغوي.

يذكر مؤرخو الاستشراق مجموعة من المستشرقين ظهرت على أيديهم هذه الدعوة وعملوا على نشرها بكل الوسائل، من أشهر هؤلاء:

-ولهلم سبيتا (wilhelm spitta):وهو مستشرق ألماني كان مديرا لدار الكتب المصرية، يعد هذا المستشرق من الرواد في الدعوة إلى اعتماد العامية لغة للأدب بدلا عن الفصحى، وقد ألف كتابا عنوانه: (قواعد العامية في مصر) سنة 1880 وهو المحاولة الأولى لدراسة العامية المصرية ووضع قواعد لها تمهيدا لاتخاذها لغة رسمية، وقد تبين أن هذا الكتاب لهذا المستشرق قد تضمن أبرز المشكلات التي واجهت اللغة العربية في هذا العصر إذ " من هذا الكتاب انبثقت الدعوة إلى اتخاذ العامية لغة أدبية، ومن هذا الكتاب انبعثت الشكوى من صعوبة العربية الفصحى.

و في هذا الكتاب وضع أول اقتراح لاتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة العامية تلك الحروف التي نودي باستخدامها فيما بعد لكتابة العربية الفصحى"[9]

وقد تناول هذا الكتاب اللهجة العامية المصرية وقدم مجموعة من البحوث تتعلق بقواعدها ونصوصها محاولا بذلك أن يجعل منها لغة صالحة للكتابة الأدبية وقد صرح بذلك في مقدمة الكتاب على الرغم أنه اعترف بصعوبة تحقيق هذه العامية لأنها لغة لا أدب لها، ثم إن بين الناطقين بها اختلافا كبيرا في استخدامها خاصة في طريقة النطق إلا أنه أكد أن سعى للتغلب على هذه الصعاب وأسهب في ذكر الجهود التي بذلها في سبيل ذلك، كما حاول أن يثبت أن العربية الفصحى غير صالحة لأن تكون لغة للشعب لأنها صعبة جدا وما زاد في صعوبتها – في رأيه- هو طريقة كتابها ويقصد حروف الهجاء العربية. كما ادعى- والحال هذه – أن الأدب لا يمكن أن يتطور إذا استخدم هذه اللغة العربية الكلاسيكية، يقول هذا المستشرق: " وبالتزام الكتابة بالعربية القديمة لا يمكن أن ينمو أدب حقيقي ويتطور. لأن الطبقة المتعلمة القليلة العدد هي وحدها التي يمكن أن يكون الكتاب في متناول يدها. أما بالنسبة إلى جماهير الناس فالكتاب شيء لا يعرفونه بتاتا... "[10]

وينبغي الإشارة إلى أن هذا المستشرق وكتابه بما تضمنه من أفكار تتعلق بمحاولة إقصاء العربية الفصحى يكاد يكون مصدر كل الشرور والمؤامرات التي تعرضت لها اللغة العربية في العصر الحديث؛ إذ إنه به أهم الاقتراحات التي طرحها المستشرقون ومن سار على نهجه من العرب وهي:

- الدعوة الى اعتماد العامية لغة للعلوم والفنون والآداب - الدعوة إلى كتابة العربية فصحى وعامية بالحروف اللاتينية

- الادعاء أن اللغة العربية الفصحى لغة صعبة ومعقدة ولا تصلح لمواكبة العصر ومن ثم فهي سبب الانحطاط.

فإذا اطلعنا على كتابات المستشرقين الذين سلكوا هذا المنحى في مواجهة العربية الفصحى وتراثها وكذلك كتابات العرب الذين تخذوا هذا المنحى فإننا نجد هذه الكتابات تتناول هذه القضايا ولا تكاد تخرج عليها ولا تمل من تكرار وإعادة طرحها في كل المناسبات على الرغم من الردود والأجوبة التي كانوا تواجهها من أنصار الفصحى، وهذا يدل على أن الأمر يتعلق بحملة مبرمجة منظمة " بدأت حملات مسعورة تكشف من ناحية عن جمود الفصحى وتعددها وبداوتها وتخلفها عن حاجة العصر وتلقي عليها مسؤولية ما كان من تخلفنا وانحطاطنا وتدعو من ناحية أخرى للعامية وتضيف إليها من مزايا الفصاحة و السهولة والمرونة

والقدرة على التعبير عن مطالب الحياة العصرية وترى فيها الوسيلة لتثقيف جماهير الشعب وتعليم الأميين "[11]

- كارل فولرس (karl vollers)؛ وهو مستشرق ألماني تولى إدارة المكتبة الخديوية بالقاهرة أواخر القرن التاسع عشر، وقد سار في طرحه فيما يخص اللغة العربية على نهج ولهلم سبيتا السابق في دعوته إلى إقصاء الفصحى واتخاذ العامية لغة رسمية بدلا عنها وقد ألف في الألمانية (تُرجم فيما بعد إلى الانجليزية) كتابه" اللهجة العربية الحديثة في مصر" سنة 1890 وصنع قريبا من سبيتا حيث جمع بعضا من نصوص العامية وحاول دراسة قواعدها ووضع لكتابتها حروفا لاتينية[12]وحمل على العربية الفصحى ووصفها بالجمود والصعوبة وشبهها باللاتينية التي انتهت ولم يعد لها وجود في عالم الكتابة والأدب اليوم، ويشبه العامية العربية الحديثة بالإيطالية التي حلت محل اللاتينية . والغريب في الأمر أنه يزعم أن العامية العربية الحديثة ليس لها علاقة بالعربية الفصحى القديمة بل إنها تعود إلى لهجات قديمة لها تاريخ منفصل عنها ولكنه لم يستطع أن يقدم أدلة علمية أو واقعية على ادعائه الذي كان الهدف منه القضاء على العربية الفصحى كما كان هدف سلفه سبيتا وكذلك أخلافه. ومن أجل الإقناع بضرورة اتخاذ العامية المصرية لغة للأدب بدلا عن الفصحى زعم أن الفرق بين هذه العامية و الإيطالية هو وجود أدب راق؛ فلم يكن فيها شاعر كبير مثل " دانتي" ولم تستخدم لأعراض أدبية إلا في القليل النادر وهذا ما جعلها لا تأخذ مكانتها الطبيعية كلغة للأدب والفن...

- سلدون ولمور (seldon willmore)؛ وهو قاضي انجليزي في مصر في عهد الاحتلال البريطاني، هو أيضا سلك سبيل سبيتا و فولرس في دراسة العامية المصرية من أجل اعتمادها بدلا عن الفصحى كما سبقت الإشارة، وقد ألف كتابا في الانجليزية سماه:" العربية المحكية في مصر " سنة 1901. وقد ردد هو أيضا الشكوى من صعوبة اللغة العربية الفصحى وأرجع نسبة انتشار الأمية في العالم العربي إلى اتخاذها لغة رسمية في الكتابة ودعا بدلا من ذلك إلى اتخاذ لغة الحديث (العامية) بديلا عنها لأنه لا يصح وجود لغتين في المجتمع لغة للأدب ولغة للحديث ففي ذلك أضرار كثيرة . ولكي ينطلي مخططه في محاربة العربية الفصحى ادعى الحرص على الفصحى و العامية جميعا لأن عدم اعتماد الأخيرة سيؤدي إلى انقراضهما معا وإحلال لغة أجنبية محلهما وبالتالي لابد من القبول بأخف الضررين وهو اتخاذ العامية لغة رسمية وذلك في الأغراض المدنية – على أقل تقدير- أما

الشؤون الدينية فلا بأس من بقاء الفصحى لغة لها . وهذا بطبيعة الحال جزء من المخطط لأنه يعلم كسلفه سبيتا ارتباط المصريين والعرب جميعا بالفصحى ارتباطا دينيا فأي تخل عن الفصحى هو في نظرهم تخل عن الدين والإسلام و القرآن لذلك فإن المستشرقين في حربهم على الفصحى كانوا يسلكون طرقا ملتوية ولا يصرحون بعداوتهم لها بل إنهم يتظاهرون بالحرص غلى تقدم العرب وازدهارهم ثقافيا وأدبيا وعلميا وأكثر من ذلك إذ إنهم ربما أثنوا على العربية الفصحى كما فعل بعضهم في مناسبات كثيرة .

-وليام ولكوكس (William Willcocks): وهو انجليزي، في الأصل كان مهندسا في مجال الري في عهد الاحتلال البريطاني، وقد سعى من أول قدومه إلى مصر بمحاربة اللغة العربية الفصحى ودعا إلى إبعادها عن الحياة الأدبية والعلمية ومن الأعمال التي قام بها في هذه المجال التأليف بالعامية والترجمة إليها. وفي سنة 1893 ألقى محاضرته الشهيرة " لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن" وقد نشرت باللغة العربية (ولكنها عربية ركيكة جدا) في مجلة الأزهر التي تولى الإشراف عليها في هذه السنة وفكرة هذه المحاضرة أن المصريين افتقدوا قوة الاختراع التي كانت في أسلافهم بسبب تأليفهم باللغة العربية الفصحى التي كانت – حسب رأيه – أكبر عائق أمام تقدمهم في مختلف العلوم والفنون وأنهم لو استعملوا العامية لكان حالهم أفضل ولنمت عندهم ملكة الابتكار وقوة الاختراع التي هي شرط الازدهار والقدم لدى كل الشعوب، وقد أكد أن الابتكار والاختراع لابد له من لسان حي يظهر فيه ويكتب به ولو ظهر في لسان ميت مثل اللغة العربية الفصحى لمات هذه الابتكار، وضرب مثلا بالانجليز الذين ما تطوروا إلا عندما هجروا اللغة اللاتينية واعتمدوا اللغة الانجليزية، ودعا المصريين صراحة إلى ترك الفصحى واتخاذ العامية لغة لهم وخاصة في إبداعاتهم " ولكنكم أيها المصريون أصبحتم تقولون إنها لغة دارجة يقصد العامية) لا ينبغي إتباعها وجنحتم في مؤلفاتهم إلى اللغة الضعيفة الخفية (يقصد الفصحى) التي ماتت منذ زمن بسبب مزاحمة القوية (العامية). وأقول لكم إذا جنحتم إلى هذه اللغة الدارجة القوية الشهيرة فيما بينكم وتركتم هذه اللغة الضعيفة تنجحون كثيرا..."[13]وأكد أن ما دفعه إلى ذلك هو رغبته في خدمة الإنسانية ونشر المعرفة ثم حبه للمصريين وحبهم له كما تمنى أن تجد آراؤه الاهتمام والقبول ومن ثمَّ التطبيق حتى يتحقق التقدم والرقي المنشودان.

أثر دعوة المستشرقين في الأوساط العربية : لم تتوقف دعوة المستشرقين هذه عندهم بل كان لها صداها الكبير وتأثيرها البالغ الأوساط الفكرية والأدبية العربية آنذاك أي حال ظهورها على أيدي المستشرقين كما استمر هذا التأثير إلى فترات لاحقة ومتأخرة أيضا، وظهر ذلك في صور متعددة منها الدعوة الصريحة إلى ما دعا إليه المستشرقون، ومنها الكتابة بالعامية والتأليف بها، ومنها خلط الفصحى بالعامية أو إنزال الكتابة بالفصحى إلى أدنى المستويات من حيث الفصاحة وقوة الأسلوب، ويمكن تسمية هذه الظاهرة بالتجربة العامية التي شملت جميع الأشكال الأدبية و أولها الفنون القصصية من رواية وقصة قصيرة ومسرح أيضا، ثم الشعر، وأشكال التعبير الأخرى ...

إن أول أثر لدعوة المستشرقين بشأن اللغة كان قد ظهر في الصحافة وتجلى ذلك في البدء فيما نشر في مجلة " المقتطف" في سنة 1881 (بعد سنة واحدة من صدور كتاب سبيتا) إذ إنها دعت إلى كتابة العلوم باللغة العامية، وعزت تخلف المصريين والعرب عموما في هذا العصر إلى اختلاف لغة الكتابة عن لغة الحديث، وساقت الحجج نفسها التي أوردها سبيتا في كتابه السالف الذكر وإن لم تصرح بذكره، وقد اتهمت اللغة العربية بالقصور عن مواكبة علوم العصر، ودعت إلى السير على نهج الأوروبيين الذين اعتمدوا على لغاتهم المحلية بدل اللاتينية واليونانية.

" ونصح (أي كاتب هذا الموضوع في المجلة) بضبط العامية اقتداء بالأمم الأوربية التي ضبطت لهجاتها وهذبتها، وكتبت بها وجرت بذلك المجرى الطبيعي القاضي على اللغات أن تتغير بتغير الأزمان، ودعا رجال الفكر إلى بحث اقتراحه ومناقشته."[14] ولم تصرح مجلة المقتطف بأن هذه الدعوة هي من وحي أو بتأثر بالمستشرق سبيتا حتى يظن أن هذه الدعوة أو هذا المقترح منشأه عربي حتى يكون أكثر قابلية وأبعد عن شبهة الأجنبي الاستعماري التبشيري " وعمل المقتطف سيئ جدا، لأنه استغفل الناس مرتين مرة بالحجج السخيفة المختلسة ومرة بالتظاهر بأن هذا الاقتراح آت من قبل قوم عرب اللسان والمولد هم أصحاب المقتطف"[15].

كما قامت مجلة المقتطف بعد صدور كتاب ولمور " العربية المحكية في مصر " سنة 1901 بالثناء على هذه الكتاب، وفي ذلك تأييد لما ورد فيه من الآراء والاقتراحات المتعلقة بإحلال العامية محل الفصحى حتى تكون لغة الكتابة هي نفسها لغة الحديث إلا أن هذه المجلة – هذه المرة – عبرت عن يأسها من إقصاء

الفصحى بالأساليب الفكرية والأدبية إذ رأت ما رأت من إقبال الناس على الفصحى تأليفا وكتابة رغم الدعوات المتكررة إلى هجرها، ومن وقف رجال الفصحى في وجه دعوة ولمور وغيره في هذه المؤامرة ...لذلك دعت إلى استعمال القوة القاهرة في ذلك أو بالأحرى تمنت أن يحدث ذلك وقد عبرت عن ذلك صراحة في إحدى مقالاتها " وإذا تبارى هو والمحافظون على اللغة المعربة فسعيهم هو الغالب أخيرا إلا تسلطت على البلاد قوة قاهرة عضدت الساعين في ضبط اللغة المحلية وكتابتها."[16] كما استعملت أسلوبا ملتويا في الدعوة إلى العامية وهو تطعيم الفصحى بالعامية؛ وذلك بإدخال كلمات من اللهجة المحلية بإزاء كلمات الفصحى واستعارة بعض أساليبها ومعانيها وإقحامها في النصوص الفصيحة، وهذا كما زعمت المقتطف ما فعله الأوروبيون في لغاتهم وقد نجحوا وعلينا أن نقتدي بهم في هذا الشأن.

ومن المجلات التي سجلت صراع الفصحى والعامية مجلة (الأزهر) التي آلت إلى المستشرق ولكوكس وظلت في أعداد عديدة تحمل على الفصحى وتدعو إلى العامية فقد نشرت على صفحاتها محاضرته الشهيرة " لِمَ لمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن" إلا أنها توقفت في عددها العاشر بعد يأسها في مسعاها وبعد الردود الكثيرة التي كانت تتلقاها في تفنيد حجج دعاة العامية وعلى صفحات هذه المجلة ذاتها.

ومن المجلات التي ساهمت في هذه الحملة (مجلة الهلال) وظهر منها ذلك حينما طلب منها قراؤها بيان موقفها من هذه الدعوة الخطيرة فكان أن نشرت عددا من المقالات بينت وجهة نظرها في الموضوع وقد ردت على دعوات ولمور السالفة واقتراحاته بشأن العامية وكيفية وضعها مكان الفصحى في كتابة العلوم والأدب. كما أن المجلة ذاتها قد نشرت ردودا على مهاجمي دعوات ولمور ومن أشهرها ما كتبه اسكندر معلوف و قد عبر عن اقتناعه بآراء ولمور هذا وأخذ في تبريره كما كان بارعا في الهجوم على الفصحى وفي الثناء على العامية فعل المستشرقين تماما.

ومما قاله" وما أحرى أهل بلادنا أن ينشطوا من عقالهم طالبين التحرر من رق لغة صعبة المراس قد استغرقت أوقاتهم وقوى عقولهم الثمينة وهي مع ذلك لا توليهم نفعا بل أصبحت ثقلا عليهم يؤخرهم عن الحركة في مضمار التمدن، وحاجزا يصدهم عن النجاح ..."[17]

كما نشرت مجلة الهلال مقالا لسلامة موسى يؤيد فيه دعوة ولكوكس – على الرغم من أن الهلال ضد هذه الدعوة- وقد عبر في هذا المقال عن ضجره من اللغة

الفصحى وزعم أنها لغة صعبة على الخاصة قبل العامة، وأنها عاجزة عن تأدية الأغراض الأدبية والعلمية، وفي الأولى أشد عجزا " ولكن نكبتنا الحقيقية هي أن اللغة العربية لا تخدم الأدب المصري ولا تنهض به، لأن الأدب هو مجهود الأمة وثمرة ذكائها وابن تربيتها ووليد بيئتها، فهو لا يزكو إلا إذا كانت أداته لغة هذه البيئة التي نبت فيها "[18]

إلا أن هذه الدعوات الإصلاحية التي تنطلق من اللغة وذلك بمحاولة ترقية العامية وتأهيلها للتعبير الأدبي والعلمي والفكري هي دعوات لا تقوم على أساس متين ولا تقوى على الاستمرار، يقول الرافعي بشأنها " وإذا حاولنا مذهب الإصلاح العامي فليت شعري من أي لهجة نأخذ، وأي لهجة في مصر هي غير مصرية فننبذها، وإذا ابتغينا بهذا الإصلاح استدراج العامة ليتابعوا الكتاب والخطباء فهل يتابعونهم على العامي وحده...أم تكون المتابعة على العامي والفصيح جميعا؟"[19]

وأبرز هذه الدعوات الإصلاحية تلك التي أطلقها لطفي السيد وهي (تمصير اللغة العربية) إذ " قام أحمد لطفي السيد داعية القومية المصرية الأول أو منشئ الوطنية الحديثة كما كانوا يسمونه يدعو إلى تمصير اللغة العربية، فجاءت فكرته في تمصير اللغة متسقة مع فكرته الرئيسية التي عالج بها مشاكلنا السياسية والاجتماعية والتربوية وهي ((المصرية)) "[20] فكانت دعوته بشأن اللغة مندرجة ضمن المشروع القومي المصري الذي بدأ في أواخر القرن التاسع عشر ثم تولى هو إحياءه. والحقيقة أن لطفي السيد لم يَدعْ صراحة إلى إقصاء الفصحى واستبدالها بالعامية وإنما كانت دعوته إصلاحية تقوم على التقريب بين الفصحى والعامية أو بالأحرى إيجاد لغة وسطى تكون وسيلة للتواصل الفكري والحضاري في ظل نهضة قومية مصرية. وقد نشر رأيه في مقالات عديدة، ومن أهم الأفكار التي أدلى بها في هذا الخصوص:- أن اللغة العربية الفصحى ثرية في المعاني القديمة ولكنها فقيرة في المعاني الحديثة والمصطلحات العلمية لذلك دعا إلى استخدام هذه المصطلحات كما هي في لغتها دون اللجوء إلى ابتكار مصطلحات عربية الاشتقاق. ولقد رأى كثير من معاصري لطفي السيد أن مشروعه الوطني هذا الذي كانت الدعوة إلى ترقية العامية فيه ركنا مهما هو في الحقيقة مشروع تدميري يتسق مع أهداف الاحتلال الانجليزي، كما اعتبرت دعوته هذه تحطيم للعربية الفصحى" ...شرع هذا الرجل يضع مشروعا لإبادة العربية، وطمرها في ركام الكلمات الأجنبية وتحطيم بنائها بالعامية تحطيما كاملا"[21]

ومن الذين ساروا في هذا النهج ونادوا بـ "تمصير اللغة " وبالتالي الدعوة إلى العامية يوصفها شرطا للنهضة ومقوما للوطنية المصرية وإحدى مستلزماتها محمد تيمور

الذي دعا إلى اللهجة المصرية وقد أشاد بها واعتبرها جزءا من الوطن، كما ألف بها مجموعة من المسرحيات (العصفور في قفص، عبد الستار أفندي، العشرة الطيبة الهاوية)[22]، كما أنه في مؤلفات أخرى لا يهتم بتقويم أسلوبه ولغته وقد لاحظ عدد من النقاد ذلك عليه.

ويعد سلامة موسى من أشهر الداعين إلى العامية بدعوى تجديد الأدب .... وقد كانت له آراء عديدة في منشورة على صفحات المجلات والجرائد التي كانت مهتمة بالشؤون الفكرية والأدبية في ذلك العصر ثم أعاد ترديد هذا الآراء في كتابين هما: الأدب للشعب، والبلاغة العصرية واللغة العربية، وقد اتخذ من تجديد الأدب ذريعة لتدمير الفصحى بزعمه أن الأدب ينبغي أن يكتب بلغة الشعب، وقد سرد في ذلك مجموعة من المغالطات تتعلق بخصائص الأدب العربي، وكذلك خصائص اللغة العربية الفصحى، إذ رماهما بكل نقيصة، من ذلك ما زعمه من أن الأدب العربي هو أدب ملوكي كتب من أجل الملوك والأمراء، وهو أدب الترف والمجون واللذة الجنسية والحروب ولا يحمل أي قيمة إنسانية أو اجتماعية مما " ... هو أدب التسلية للملوك والأمراء، وهو أدب اللذة الجنسية السوية والشاذة، وهو أدب المنازعات الحربية والمناقشات الدينية، هو كذلك ولكنه ليس أدب الشعب الذي يكافح من أجل الحرية والاستقلال، وليس أدب الإنسانية الذي يحمل همومها ويعبر عنها بالقصة والشعر والمقال، بل هو كذلك ليس الأدب الذي يدعونا إلى احترام المرأة وحبها"[23] فهو كما يظهر في هذا النص يجرد الأدب العربي من أي قيمة ومن أي دور يمكن أن يقوم به، ملصقا به تهما كثيرة تجعل منه أدبا محتقرا بعيدا عن كل احترام وبالتالي يفقد كل صلاحية لإلهام الأجيال كما حكم بذلك في موضع آخر من هذا الكتاب . كما رماه بأنه إقطاعي النزعة، وتهيمن عليه الروح الانفرادية ...إلى آخر ذلك من الأحكام التي هي في أصلها خصائص لشعراء و أدباء بعينهم أو على أكثر تقدير هي خصائص الأدب في مرحلة تاريخية معينه، لكن هدفه في محاربة العربية وآدابها جعله يسقط هذه الخصائص - على فرض وجودها- على الأدب العربي برمته والذي جرده من كل رسالة " ونحن ندعو في أيامنا أن يكون الأدب للحياة، أي للشعب، أي للمجتمع، أي للإنسانية، وأن يكون للأديب رسالة يؤديها كما يؤدي النبي رسالته، وكل هذه المعاني بعيدة عن شعراء العرب باستثناء المعري، ولذلك لا يمكن للأديب المصري العصري أن يستلهم الأدب العربي القديم"[24] ومن غير شك أن نظرة سلامة موسى هذه إلى الأدب العربي هي مسألة وثيقة باللغة العربية التي هي لسان هذا الأدب فقد زعم مزاعم كلها تصب في إقصاء الفصحى من مجال التعبير الأدبي مسايرا في ذلك المستشرقين ودعوتهم

إلى إحلال العامية محل الفصحى، يقول في خصائص لغة الأدب العصري – كما يراه – والتي ينبغي أن يكتب بها" يجب أن يكتب بلغة الشعب، لغة ديمقراطية ليست بالعامية طبعا؛ لأن العامية لا تكفي للتعبير، ولكن بلغة ميسرة تشفي على العامية يستطيع جمهور الشعب فهمها... إنه يكتب للنجار والطبيب والفلاح والبقال والمهندس وغيرهم ممن يعملون وينتجون، وهو يعالج همومهم واهتماماتهم فيضطر أن يكتب بلغتهم "[25] كما يقول أيضا في شأن الدعوة إلى الخط اللاتيني وهي دعوة خطيرة تستهدف الحرف العربي بكل ما يمثله وبكل ما يعكسه وبكل من يرمز إليه من تاريخ وقداسة وحضارة وثقافة كما ترمي إلى الارتماء في أحضان الغرب والذوبان في حضارته والخضوع لهيمنته " والواقع أن اقتراح الخط اللاتيني هو وثبة إلى المستقبل لو أننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا التي أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها وفتح لها أبواب مستقبلها "[26] فهو يريد - كما نلاحظ- قتل ماضي الأمة العربية عن طريق القضاء على هذا الخط العربي، ويريد أن يكون لها مستقبل مقطوع الصلة لهذا الماضي؛ فدعوته-إذاً- لم تكن مجرد قضية لغوية تعليمية بل إنها تفوق ذلك بكثير.

وعلى الجملة فإن سلامة موسى بهجومه على الأدب العربي القديم وتجريده من كل قيمة أو رسالة، وكذلك هجومه على العربية الفصحى والتنقيص من شأنها والتقليل من قدرتها على استيعاب قضايا العصر وعلومه ورميها بعدم قدرتها على مواكبة التقدم والدعوة إلى استبدالها بالعامية هو بذلك ينفذ مخططات المستشرقين ويدعو إلى ما دعوا إليه إن لم يكن أشد منهم عداوة وضراوة على الفصحى وأدبها.

ويمكن أيضا إدراج مفكر عربي معاصر ضمن هذا التوجه الذي يتخذ من التجديد الأدبي والفكري ذريعة للهجوم على الفصحى واستبدالها بالعامية هذا المفكر هو زكي نجيب محمود الذي كان له من العربية الفصحى رأي يتفق فيه مع موجة العداء التي قادها طائفة من المستشرقين – كما أسلفنا – يقول في كتابه (تجديد الفكر العربي) " أقول بصفة عامة – وهو قول أتفق فيه مع جاك بيرك...- : إن اللغة العربية كما نراها في التراث الأدبي وكما لا تزال تستخدم عند كثيرين ممن يظنون أنهم يكتبون أدبا توشك ألا تنتمي إلى دنيا الناس، فلا تكاد ترى علاقة بينها وبين مجرى الحياة العملية، ولذلك يجد المتكلمون مفرا لهم من أن يخلقوا – إلى جانب الفصحى – لغات عامية يباشرون بها حياتهم اليومية "[27] فهو يتفق مع المستشرق جاك بيرك في موقفه من الفصحى الذي يرى أن الفصحى على الرغم من أنها استقرت لغة للأدب قديما وحديثا إلا أنها لا علاقة بحياة الناس

اليومية بمعنى أنها لا تصلح في التعبير عنهم وعن شؤونهم واهتماماتهم الحياتية والفكرية والأدبية.. ولذلك لجأوا إلى اللغات العامية في هذا المجال.

وفي الحقيقة أن الداعين والمتأثرين بهذه الدعوة من العرب والمسلمين كثر وقد ذكرت طائفة منهم ويمكن أن نضيف آخرين حتى وإن لم تكن دعوتهم صريحة أو مقصودة تماما ولنقل إن هؤلاء كانوا من المتأثرين بهذه الدعوة وحاولوا تحقيها أدبيا بأن تكون لغة للأدب، وبطبيعة الحال لم تنجح هذه الدعوة في هذا المجال النجاح الذي كان مرجوا لها ومخططا لها من قبل المستشرقين والسائرين في ركبهم من المستغربين العرب. ويمكن تقديم بعض النماذج التي كانت بالفعل صدى لهذه الدعوة في إقصاء الفصحى وإحلال العامية بدلا عنها في المجال الأدبي ويتمثل المجال الأدبي في الفنون القصصية والمسرحية على وجه الخصوص، أما الشعر فقد كان أبعد عن التأثر بهذه الدعوة وإن لم يسلم هو أيضا من هذه الدعوة بذرائع كثيرة منها الواقعية والتجديد ومواكبة العصر والعفوية والبساطة وما إلي ذلك من الذرائع.

صدى الدعوة إلى العامية في الشعر:

لقد استطاع الشعر العربي أن ينهض من كبوته التي أصيب بها في عصر الضعف والانحطاط وتمكن من الخروج مما من الحالة التي آل إليها وذلك بفضل رواد النهضة الأدبية وعلى رأسهم محمود سامي البارودي ثم مجموعة من الشعراء الذين جاءوا من بعده وأكملوا مسيرته ومنهم أحمد شوقي وخليل مطران وحافظ إبراهيم فعادت للشعر العربي نضارته ورونقه كما تخلص من كثير من لحقه من سمات الانحطاط التي أضرت به موضوعا وأسلوبا ولغة وأخذ يشق طريقه نحو النضج والإبداع محافظا على هويته وجوهره ولغته العربية الفصحى كما ظهرت بعد ذلك عدد من الاتجاهات التي ترمي إل تطوير الأدب ونقله من حال الضعف والانحطاط من ذلك ما يعرف بمدرسة الديوان و جماعة أبو للو وجماعة المهجر، وقد عاصرت جميعا الصراع بين الفصحى والعامية إلا أنها جميعا لم تنصر للعامية ولم تدع إليها مع اختلاف بينها في التمسك بالفصحى لأننا نجد بعض الشعراء وخاصة في جماعتي أبو للو والمهجر قد لوحظ في بعض آرائهم بعض التساهل في مسألة اللغة كالذي نجده عند أحمد زكي أبو شادي ومخائيل نعيمة، إلا أنه لا يمكن القول إنهم دعوا إلى إقصاء الفصحى واعتماد العامية بل إن الموضوع لا يتجاوز مجرد ما يمكن تسميته بعصرنة الشعر وتخليصه من اللغة الفصحى في ثوبها القديم ومعنى ذلك أنه يمكن القول إن الدعوة إلى العامية قد أصاب شيء من شظاياها لغة هذا الشعر ووجدنا من ينادي بضرورة أن تكون لغة الشعر عامية بحجة البساطة

والعفوية والواقعية التي ينبغي أن يكون عليها الشعر حتى يكون من أفهام الناس وأذواقهم ويكون أكثر تعبيرا عن همومهم واهتماماتهم كما هو معروف من مزاعم دعاة العامية. وقد تبين مع مرور الزمن أن الدعوة إلى العامية لم طريقها إلى الشعر العربي[28] وقد ظل الشعراء يفضلون الفصحى ولا يرون في العامية بديلا عنها بأي حال من الأحوال، بل إنهم دافعوا عنها باستماتة وخاصة المدرسة المحافظة على غرار ما نجد عند من دفاع عن اللغة العربية من طرف أحمد شوقي وخليل مطران وحافظ إبراهيم.

صدى الدعوة إلى العامية في القصة والمسرحية:

كانت أكثر الفنون تأثر بهذه الدعوة هي الفنون المسرحية والقصصية لعل السبب في ذلك يعود إلى أن هذه الفنون ليست أصيلة في الأدب العربي مثلما هم حال الشعر بل هي فنون غربية بالأساس، ثم إنها فنون أكثر التصاقا بحياة الناس وواقعهم اليومي لذلك فالعامية قد تكون ملائمة لها شيئا ما.

والمحاولات في هذا الشأن كثيرة جدا إلا أن الحديث في ذلك سيقتصر عل تلك الأعمال التي شكلت محطات بارزة في الفن القصصي وكذلك المسرحي، والتي كان أصحابها أيضا كتابا ذوي مكانة مرموقة في الأدب العربي الحديث. ومن أهم الأعمال القصصية التي استعملت فيها العامية ما يلي:

رواية زينب لمحمد حسين هيكل:

يعد هذا العمل القصصي أول رواية عربية بالمعنى الغربي لهذا الفن القصصي، وقد كتبها صاحبها وهو في فرنسا متأثرا بأدبها ويشده حنين لوطنه فجاءت قصته تصويرا للريف المصري في مناظره الطبيعية وفي عاداته وتقاليده، وقد أشار إلى ذلك مقدمته للرواية[29] وهذه الرواية هي أول ما استخدمت فيها العامية بشكل لافت وذلك في الحوار الذي كان يدور بين شخصياتها، ولعل توجهه للعامية كان لأسباب من أهمها أن أستاذه كان لطفي السيد الذي عرف بدعوته إلى "المصرية" ومنها مصرية الأدب، وكذلك ولوعه بالثقافة الغربية " فقد سار على تعاليم أستاذه فتمثل الثقافة الغربية وخاصة الفرنسية وجاهد في الدعوة إلى أدب مصري قومي تتضح فيه ذاتيتنا وكياننا الأدبي المستقل عن أجدادنا القدماء وجيراننا المعاصرين العرب "[30] . وقد نجحت الرواية واستقبلها الجمهور استقبالا جيدا والسبب في ذلك أنها نشرت في وقت كانت فكرة القومية المصرية على أشدها إلا أن هذا لم يدم طويلا و الدليل على ذلك أن محمد حسين هيكل صاحب هذه الرواية لم يعد إلى الكتابة بالعامية بل كانت كتاباته التالية بالفصحى.

عودة الروح لتوفيق الحكيم[31]:

تعد هذه القصة من حيث استخدام العامية استمرار لما اختطه محمد حسين هيكل بل إن توفيق الحكيم كان أكثر جرأة منه ذلك أنه استخدم العامية في الحوار والسرد أيضا الأمر الذي لم يفعله الأول، والسبب في توجه الحكيم إلى العامية تكاد تكون نفسها تلك التي دفعت هيكل، ذلك أن الحكيم كان هو أيضا متشبعا بالثقافة العربية معجبا بنماذجها الاجتماعية والسياسية إضافة إلى إيمانه بالقومية المصرية التي ينبغي أن تتميز عما سواها وأهم ما يحقق لها ذلك هو إحياء تراثها والتشبث بمقوماتها وأهمها اللغة العامية التي هي تعبير عن الهوية المصرية. ومن البديهي أنه لا يعاب على توفيق الحكيم أن تكون لغة القصة تعبيرا صادقا عن البيئة ومعالجة لمشكلات العصر، لكن ما يعاب أن تقحم العامية في التعبير عن قضايا إنسانية وفلسفية لا تتحملها مفرداتها ولا أساليبها وأن يعدل عن الفصحى لا لشيء إلا أنها لغة قد عاداها المستشرقون ومن وراءهم، وقد ثبت لتوفيق الحكيم نفسه أن العامية لا يمكن أن تكون بديلا جيدا للفصحى بدليل أنه عاد للكتابة بالفصحى في معظم مؤلفاته تماما مثلما فعل هيكل، بل إن تكملة "عودة الروح نفسها التي شاعت فيها العامية قد كتبها بالفصحى وهي " عصفور من الشرق".

وقد كان لتوفيق الحكيم تجربة مع العامية وذلك في أعماله المسرحية ـ فضلا طبعا عن القصة –

كتب الحكيم المسرحية بالفصحى من ذلك : (الملك أوديب، أهل الكهف سليمان الحكيم، شهرزاد). كما كتب مسرحيات أخرى بالعامية من ذلك :(الزمار رصاصة في القلب)، وكتب مسرحيات أخرى بلغة وسطي بين الفصحى والعامية كما في مسرحية (الصفقة) وهي ذات أسلوب ليس بالفصيح القوي ولكنه لا يجافيه، والسبب في هذا التردد أن الكاتب لم يستقر على لغة معينة لكتابة المسرحية ؛ فلا الفصحى الخالصة قد أرضته ولا العامية الصرفة قد أرضته، فاختار أسلوبا وسطا يكون ملائما للفن المسرحي وخصوصياته من حيث الموضوع والشكل والتعبير ـ حسب ما يرى ـ

فهو يرى أن الفصحى غير صالحة وكذلك العامية " ... كما أن استخدام العامية يقوم على اعتراض وجيه هو أن هذه اللغة ليست مفهومة في كل زمن ولا في كل قطر بل ولا في كل إقليم، فالعامية إذن ليست هي الأخرى لغة نهائية في كل مكان وفي كل زمان. كان لابد من تجربة ثالثة لإيجاد لغة صحيحة لا تجافي قواعد الفصحى وهي ـ في نفس الوقت مما يمكن أن ينطقه الأشخاص ولا ينافي

طبائعهم ولا جو حياتهم. لغة سليمة يفهمها كل جيل وكل قطر وكل إقليم، ويمكن أن تجري على الألسنة في محيطها تلك هي لغة هذه المسرحية..."[32]

قصص محمود تيمور:

توجه محمود تيمور إلى الكتابة القصة القصيرة متأثرا بالدعوة الشهيرة التي راجت في الثلث الأول من القرن العشرين والتي تنادي بضرورة وجود أدب قومي مصري يختلف عن الأدب العربي ولا يعتمد الفصحى لغة له، وقد كان أخوه محمد تيمور من أكثر المتحمسين لهذه الدعوة وبلا شك فقد تأثر به، وهذا التوجه عند محمود للكتابة بالعامية كان في بدايات تجربته وقد أظهر في تلك الفترة حماسة قوية لهذا الأدب المصري الذي يراد له أن ينشأ و يتبلور، يقول في مقدمة مجموعته القصصية" عار علينا ونحن في بدء نهضتنا أن لا يكون لنا أدب مصري يتكلم بلساننا ويعبر عن أخلاقنا وعواطفنا ويصف عوائدنا وبيئتنا أصدق وصف..."[33]

كما أن توجهه إلى العامية قد يفسر أيضا بسعيه إلى الواقعية في الأدب التي رأى أنها المذهب الأفضل الذي يجب أن يكتب به الأدب وخاصة القصة، والعامية هي المظهر الأبرز الذي ينبغي أن يتصف به الأدب.

والقصص التي استخدم فيها محمود تيمور العامية جعلها في أربع مجموعات كل مجموعة بعنوان أول قصة فيها، وهي:(الشيخ جمعة، عم متولي، الشيخ سيد العبيط، رجب أفندي). وطريقة استخدام الكاتب هي أنه جعلها لغة للحوار، بينما الوصف استخدم فيه الفصحى وقد تبين له فيما أن في هذا ازدواجية وتناقضا لا يستسيغه القارئ في عمل واحد ، كما تبين له من خلال التجربة أن العامية لا تصلح بشكل قطعي أن تكون لغة للأدب لذلك عدل عنها إلى الفصحى، بل إن الأعمال التي ألفها في البداية بالعامية قد قام بإعادة كتابة بعضها بالفصحى.

كما اعترف بأنه كان مخطئا باستخدامه العامية في حوار قصصه وأن لغة الكتابة الأدبية القصصية ينبغي أن تكون الفصحى وصفا وحوارا لكن ينبغي أن تتوخى فيها السهولة، وهذا الرجوع والاعتراف قد سجله عندما أعاد طبع بعض مجموعاته القصصية[34].

ومن كتاب القصة الذين استخدموا العامية إبراهيم عبد القادر المازني وذلك في أعماله القصصية التي تضمنتها عدة كتب منها: خيوط العنكبوت، في الطريق، ع الماشي، من النافذة، أقاصيص، وهي قصص صدرت بين عامي 1935 و 1949 وموضوعاتها مستلهمة من حياة المؤلف اليومية ومشاهداته وتجاربه وأسلوبها فكاهي ساخر تضمنت عديد الألفاظ والتعبيرات العامية.

الجدير بالإشارة أن موقف المازني من العامية يختلف عمن سبق من دعاتها فهو ليس كذلك ؛ فالذي دفعه إلى العامية أمران : - إيمانه بالواقعية في الكتابة القصصية (من ذلك ما يراه من بعض الألفاظ العامية لا مناص من استخدامها بشرط إخضاعها لقوالب الفصحى وقواعدها - ثم اشتغاله بالصحافة لأن ذلك أدى إلى السهولة والمرونة في أسلوبه ومن ثم الترخص في استخدام العامية .ومما يؤيد هذا الرأي أن المازني من المحبين للفصحى والمدافعين عنها كما كتب كمًّا كبيرا من الأعمال بالفصحى وألف في الأدب العربي ونقده، فضلا على أنه من دعاة القومية العربية والمؤمنين بها[35].

تلك كانت أهم الأعمال القصصية والمسرحية الأولى التي تأثرت بالدعوة إلى استخدام العامية لغة بديلة عن الفصحى في الكتابة الأدبية التي بدأها المستشرقون وتأثر بها مجموعة من أعلام الأدب العربي الحديث، وقد تلتها عديد الأعمال الأدبية التي تشيع فيها العامية بنسب متفاوتة وهذه الظاهرة كانت على امتداد البلاد العربية وعلى مدى عشرات السنين ...ولكن رغم كل ذلك - كما رأينا - لم تنجح هذه الدعوة في إيجاد أدب عامي بمقومات كافية ويكون في الوقت نفسه بديلا عن الأدب العربي الفصيح؛ يأخذ مكانه ومكانته، ويُهمَّش فيه الأدب العربي ويُقضَى على لغته قضاء مبرما ويهجرها أهلها هجرا أبديا، كل هذا لم يتحقق، بل أثبتت اللغة العربية حضورها وجدارتها ومقاومتها لكل تلك المحولات الهدامة والخطط الخبيثة وظلت هي اللغة المفضلة عند الأدباء شعراء وكتابا وعند القراء وعند الجمهور العربي أيضا أيا كان مستواه الفكري والثقافي. وهذا لا يعني أن العامية لم يكن لها حضور في الأعمال الأدبية، بل كانت حاضرة ولا زالت كذلك إلا أنها لم تأخذ المكانة التي أريد لها في ذلك المشروع الاستشراقي الاستعماري وذلك لخدمة أغراض خطيرة سياسية واجتماعية وثقافية كانت تقف وراء هذا المشروع - كما كشفت الوقائع و نبه إلى ذلك عديد الباحثين -

وينبغي التنبيه أيضا أن شيوع العامية في الكتابة الأدبية بجميع أنواعها لم يكن دائما استجابة لدعوة المستشرقين أو تأثرا بأفكارهم في هذا المجال، بل إن لهذه الظاهرة أسبابا أخرى - كنا قد ألمحنا إليها سابقا - ومن ذلك : - استخدام بعض المصلحين للعامية بهدف الإصلاح ولأغراض اجتماعية وسياسة وأخلاقية ودينية.

- استخدام بعض الكتاب للعامية لضعف قدراتهم في اللغة العربية الفصحى وعدم التمكن من أساليبها (وفي هؤلاء بعض الكتاب وأكثر الصحفيين).

ـ استخدام بعض الكتاب للعامية بدافع الواقعية والصدق الفني والقرب من لغة العامة والرغبة في نقل همومهم وتجاربهم وتفاصيل حياتهم... وخير مثال لهؤلاء المازني.

وخلاصة القول في هذا الموضوع أن الحملة الكبيرة التي شنها طائفة من المستشرقين وسار على دربهم أيضا طائفة من العرب من أجل القضاء على العربية الفصحى واستبدالها بالعامية لم تنجح في نهاية المطاف وإن كان لها بعض الآثار ـ كما لاحظنا ـ بل إن العامية التي سعوا إلى تمكينها قد ظهر عجزها وبدت عيوبها ولم يكن من القدرة على احتضان المضامين الأدبية واستيعاب الأساليب الفنية الراقية و التعابير الجميلة شيء يذكر، بل وأثبت الفصحى وحتى عند ألد أعدائها كفاءة ومقدرة ما لا يمكن معها أبدا الاستغناء عنها، وعلى العكس تماما مما أريد للفصحى من شر فقد انبرى أبناء العربية الفصحى للذود عنها بشتى الطرق و الأساليب فيما كتبوه من بحوث وأنجزوه من دراسات تثبت قوتها وأصالتها، وفيما أبدعوه من شعر وروايات وأقاصيص ومسرحيات وفنون أخرى كانت الفصحى فيها لغة متميزة وافية بكل متطلبات هذه الفنون وقادرة على التأثير والانتشار في الأوساط كلها؛ في أبنائها والناطقين بها وربما تجاوزت ذلك إلى فضاءات أخرى.

الهوامش :

[1] / نفوسة زكريا محمد تاريخ الدعوة للعامية، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، مصر ط3، 1964 ص17.

[2] / المرجع نفسه، ص 07.

[3] / أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، مصر 1998 ص 669

[4] / تاريخ الدعوة إلى العامية، ص 12.

[5] / عباس محمود العقاد، اللغة الشاعرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، د.ت، ص 09.

[6] / المرجع نفسه، ص 09.

[7] / مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 2002، ص 23.

[8] / عثمان أمين، فلسفة اللغة العربية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1965، ص 3و4.

[9] / تاريخ الدعوة إلى العامية، ص 18.

[10] / المرجع نفسه، ص 22

[11] / عائشة عبد الرحمن، لغتنا والحياة، دار المعارف، مصر 1971، ص 98.

[12] / تاريخ الدعوة إلى العامية ص 25.

[13] / المرجع نفسه، ص 36.

[14] / المرجع نفسه، ص 95.

[15] / أباطيل وأسمار، ص 133.

[16] / تاريخ الدعوة إلى العامية، ص111.

[17] /المرجع نفسه، ص 116.

[18] / المرجع نفسه، ص 119.

[19] / مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، ص 44.

[20] / تاريخ الدعوة الى العامية، ص 124.

[21] / أباطيل وأسمار، ص 211.

[22] / تاريخ الدعوة إلى العامية، ص 139.

[23] / سلامة موسى، الأدب للشعب، ص 41.

[24] / المرجع نفسه، ص 55.

[25] / المرجع نفسه، ص 27.

[26] / المرجع نفسه، ص 117 و118.

[27] / تجديد الفكر العربي، ص 216.

[28] / لا ينبغي الخلط هنا بين الشعر العربي الفصيح، وبين الشعر الشعبي لأنه فن قائم بذاته موجود قبل الدعوة إلى العامية، كما أنه لم يكن يوما بديلا عن الشعر الفصيح ولا حتى منافسا له.

[29] / محمد حسين هيكل، قصة زينب، طبع مصر، 1953 ص11.

[30] / تاريخ الدعوة إلى العامية، ص 382.

[31] / توفيق الحكيم ، عودة الروح، ط3، القاهرة، مصر، 1955.

[32] / توفيق الحكيم ، مسرحية الصفقة، دار مصر للطباعة، د.ت، ص 156 و157.

[33] / الشيخ جمعة، ص10و11(من تاريخ الدعوة الى العامية ص 401).

[34] / محمود تيمور، الشيخ جمعه،ط2، 1937، ص 14 و15 .

[35] / شوقي ضيف، الأدب العري المعاصر في مصر، دار المعارف، ط 10، ص 26.